

الباب السادس

فى الانحراف

الانحراف هو الميل عن القصد، أو مجانبية الصواب فى الفكر والسلوك، وانحراف النشء هو سوء سلوكه وعدم اتباعه الطريق السوى، وهو يشمل الانحراف فى العقيدة والرأى والقول والفعل والحال، وانحراف النشء كأى انحراف رذيلة اجتماعية موجودة فى كل الأوساط من قديم الزمان، فليس كل مجتمع نظيفاً تمام النظافة من العيوب الخلقية، غير أن الانحراف إذا كان بنسبة ضئيلة لا يشكل خطراً يستحق الدراسة والاهتمام البالغ، فهو أمر عادى يعالج عادياً كما تعالج بقية الأمراض التى بهذه الدرجة بالوسائل المعروفة، لكنه إذا كثر وأثر تأثيراً كبيراً على المجتمع ككل كان مشكلة تستحق الدراسة والبحث عن وسائل الإصلاح، شأن الأمراض إذا اتخذت شكلاً وبائياً، أو كثر كثره تستلقت النظر وتستوعى الانتباه.

ومن أولى الدول الحديثة التى تنبعت إلى خطورة الانحراف فى الأولاد نتيجة الإهمال الصحى والخلقى والثقافى - إنجلترا، فأنشأت منذ أواخر القرن التاسع عشر لجناً للعناية بالنشء، وأدركت أن ضعف صحة الأولاد أساس متاعبهم، فأنشأت جمعيات خاصة بدراسة هذه الظاهرة ووضع الحلول لها. وقررت تعقب أحوال الأطفال المتخلفين وتوفير الغذاء والخدمة الطبية لهم، كما اهتمت بالأكفاء، فأنشأت لهم بيوتاً سموها «بيوت الشمس المشرقة» واهتمت أمريكا بالطفل منذ عقد مؤتمر العناية بالأطفال المشردين سنة ١٩٠٩م، فأنشئت مكتب الأطفال الذى وافق عليه البرلمان سنة ١٩١٢م، وأنشئت عدة مؤسسات كالهيئة الأهلية للعناية بالأطفال، التى أنشئت سنة ١٩٢٠م ولها نحو ٢٥٠ هيئة فرعية.

وفى سنة ١٩٠٨م صدر قانون إنشاء «بيوت الأطفال» فى كل بيت خمسة

عشر طفلاً، وهى غير الملاجىء، وعلى كل بيت أم مشرفة، ويلحق بكل بيت «بيت الاستقبال» وأنشئت بأمريكا «الرابطة الأمريكية لدراسة شئون الطفل» وهى تدرس كل مشكلات الطفولة منذ الرضاعة إلى سنّ اليافع، وتتعقب حالات الأطفال فى المدارس، وتعنى بالتشريعات الخاصة بحماية الطفل وتقديم المساعدات المادية وتنسيق الجهود بين البيئة والهيئات الرسمية لخدمة الطفولة، وأنشئت كذلك مؤسسات تربية الأطفال سنة ١٩١٦م.

وفى بلجيكا صدر قانون سنة ١٩١٩م بإنشاء هيئة أهلية لحماية الطفولة، واهتمت بالمتشردين فأنشأت مدينة لهم تسمى «المدينة السعيدة» بها عدة أقسام وعدة مدارس للأحداث وغيرهم، وتكافتت الدول فى ذلك فاجتمع أقسام وعدة مدارس للأحداث وغيرهم، وتكافتت الدول فى ذلك فاجتمع الاتحاد الدولى لرعاية الطفل فى جنيف سنة ١٩٢٣م.

وفى مصر أنشئت محاكم الأحداث سنة ١٩٠٥م وإصلاحية الجيزة سنة ١٩٠٨م وإصلاحية الجبل الأصفر سنة ١٩٢٠م وتحولت إلى المرج سنة ١٩٢٨م، وإصلاحية الأحداث بالقناطر الخيرية سنة ١٩٢٨م ثم تغيرت الأسماء إلى مؤسسات التربية، وأنشأت الملاجىء لليتامى ودور الرعاية للمتسولين ومؤسسات تحسين الصحة. وفى سنة ١٩٥٣م أنشئت مؤسسة التأهيل المهنى لذوى العاهات وانتشر الوعى فى الشرق، واهتمت حلقة الدراسات الاجتماعية لجامعة الدول العربية التى عقدت فى بيروت سنة ١٩٤٩م بالأطفال، وأصدرت عدة توجيهات لصالحهم، وبذلت أخيراً عدة جهود لخدمة الأطفال الذين قسموا إلى: (الأطفال الشواذ، والمشردين والجانحين واليتامى واللقطاء).

بعدهذه المعلومات التاريخية سنتحدث عن منهج الإسلام فى علاج الانحراف فى الفصول الآتية مع الرجوع إلى الجزء الأول من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف».

* * *

الفصل الأول

فى أسباب الانحراف

قدمنا فى البحوث السابقة منهج الإسلام فى رعاية النشء من كل الوجوه، وتعرضنا عند الحديث على ذلك إلى ما ينتج من عدم رعاية هذا المنهج، وهذا فى الحقيقة هو الانحراف. فمنهج الإسلام فى التربية غذاء ودواء، غذاء يحفظ النشاط وينتج القوة، ودواء يشفى العلل ويداوى الأمراض وكلا الأمرين من وضع الحكيم الخبير سبحانه وتعالى، أوصانا بالعناية بتنفيذه حسب التعليمات الدقيقة المفصلة الواضحة، فإذا نفذ على الوجه المطلوب أنتج النتيجة المرضية، وإذا لم يراع التنفيذ، الدقيق كانت النتيجة ضعفاً وعللاً وانحرافاً، ولا يجوز الطعن فى المنهج نفسه. فهو وضع الله ﷻ **﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾** [البقرة: ١٣٨] **﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [فصلت: ٤٢]. بل الطعن موجه إلى سوء الاستعمال والإهمال فى التنفيذ والتطبيق.

وكان بحسبنا أن نحيل القارئ إلى البحوث السابقة ليعرف أسباب الانحراف، ولكن تيسيراً عليه سنحاول هنا أن نقرّبها إليه، ونذكر ما عسى أن نكون قد نسيناه.

ومعرفة أسباب الانحراف أساس معرفة العلاج، فالمرض إذا شخص بوضوح وعرفت أسبابه الحقيقية سهل وضع الدواء المناسب للعلاج، وللباحثين فى أسباب الانحراف مناهج سأختار منها ما رآه بعضهم من تقسيمها إلى مجموعات ثلاثة، وهى الأسباب الذاتية، والأسباب الأسرية، والأسباب الخارجية، وإليك بيانها:

الأسباب الذاتية: هى عوامل تابعة من ذات الناشئ، وهى قسمان:

(أ) عوامل موروثية، (ب) عوامل مكتسبة عارضة:

أ - فالعوامل الموروثة كالتخلف العقلى الذى ورثه عن أصوله، وهذا بالطبع شىء قهرى لا حيلة للناشئ فى دفعه، وسيكون حائلاً بينه وبين الكمال المنشود، ومعرضاً إياه لكثير من الأخطار والوقوع فى المخالفات، ضرورة أن العقل هو الأداة التى توجه السلوك، وصلاحه مرتبط بها، ولا حاجة إلى دليل على التلازم بين هذه الحالة وبين الإنحراف، فالواقع المشاهد أقوى دليل.

(ب) والعوامل المكتسبة العارضة كالعمى والعرج والتشوهات الخلقية الأخرى، والمشهد أن هذه العوامل تدفع أحياناً إلى الانحراف لسببين، الأول إهمال الآباء فى تقويم هؤلاء، إما شفقة عليهم وإما يأساً منهم وبخلاً بالجهد أن يبذل فى تربيتهم، وادخاره لغيرهم ممن يرجى منهم الخير، والثانى سخط المشوه على غيره ممن لم يصابوا بمثل إصابته، وتعقد نفسه من المجتمع الذى ينظر إليه نظرة احتقار، ويشعر فيه بأنه ناقص عاجز، وهذان السببان يدفعان المشوه إلى تصرفات غير كريمة، تنفيساً عما يعانى من كبت، وذلك هو الانحراف، ولا يغيب عن أذهاننا القول الجارى « كل ذى عاهة جبار ». وهذه العوامل الذاتية يرجع إليها ٨٪ من حالات الانحراف على ما حققه الباحثون.

الأسباب الأسرية: هى عوامل من البيئة الأولى التى تحيط بالطفل فى أضيق حدودها، ويأوى إليها الناشئ فى أكثر أوقاته وغالب أحواله، والأسباب الأسرية هى والأسباب الخارجية التى سنتحدث عنها فيما بعد، هما ما أشرنا إليه فى العوامل المؤثرة فى السلوك فى باب الرعاية الأدبية باسم البيئة كقسيم للوراثة فى التأثير، وقد جعل الباحثون الأسباب الأسرية عاملاً بارزاً فى الانحراف لكثرة آثارها وبيان مدى خطورتها على السلوك، وأهم عوامل هذا الانحراف الأسرى ما يأتى:

١ - الفقر بسبب المرض أو العجز عن العمل أو بآى سبب آخر. وهو يؤدى إلى التقصير فى الرعاية، ويدعو الناشئ إلى التماس العيش من أى طريق، دون الاهتمام بمصدره إن كان مشروعاً أو غير مشروع.

إن الناشئ في ظل الأسرة الفقيرة إما أن يعيش كئيبيًا محزونًا، عندما يرى غيره من الناشئة الذين يعيشون في سرور ورخاء، وهو لا يستطيع الحصول على ما يحقق رغبته ويرضى هواه، وإما أن يلجأ في تكميل نقصه المادي إلى وسائل غير مشروعة، كالنسول والسرقة واحتراف المهن الممنوعة والسقوط في مهاوى الرذيلة بغية العيش بأى ثمن، إذا لم تكن هناك عصمة من دين وخلق، فثورة البطن عارمة تجرف غالباً أمامها كثيراً من القيم الأدبية، لا تحترم ديناً ولا قانوناً ولا عرفاً ولا تقاليد، وهذه حقيقة يؤيدها الواقع. والفقر بفساده وإفساده يكاد يكون كفرًا، ولذلك استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»^(١) وأكثر المشكلات الأخلاقية بل السياسية أيضاً منشؤها سوء الحالة الاقتصادية، والرخاء قاعدة أصيلة من قواعد النهوض والرقى، مع اعتبار الدين في كل حال، والأسرة الفقيرة إذا خرج منها ناشئ مستقيم كان ذلك بصعوبة بالغة وجهد شاق يجعل هذه الحالة شاذة في موضع الغرابة تستحق التمجيد.

٢ - الترف - ترف الأسرة وترف الناشئ يكون أحياناً من أسباب الانحراف إذا لم تسيطر عليه روح الأخلاق والدين. فالترف بطبيعته مدعاة للهو والعبث والانطلاق من القيود، وإذا شب الناشئ في أسرة مترفة منحرفة انحرف مثلها غالباً، كما قيل:

إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وإذا كانت الأسرة مترفة بمعنى أنها غنية لكنها مستقيمة في الأخلاق فإن عدم الحكمة في تربية الأولاد بإمتاعهم بكل ما يريدون وتدليلهم وترفيهم وتربيتهم على المثل الأجنبية في التحرر واستقلال الشخصية - كل ذلك مظنة انحرافهم وعدم جديتهم في السلوك، وإذا شب ناشئ في جو هذه الأسرة مستقيماً كان صورة من صور الإعجاز جاءت على غير المعهود قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العنق: ٦، ٧] وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ

(١) رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه.

الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [الشورى: ٢٧] وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

٣ - الجهل - الجهل عمى وضلال لا يستطيع معه معرفة الشر من الخير، ولا الضار من النافع، والناشئ الجاهل يتصرف بوحى من غرائزه وشهواته، خصوصاً فى سنواته الأولى التى لم ينضج فيها عقله بالتجارب حتى يتحكم فى شهواته وعدم تعلمه هو أساس انجرافه فى غالب الأحيان، والواقع يشهد لذلك، والأسرة الجاهلة أيضاً لا تعنى بتربية أولادها لعدم إدراكها لقيمة العلم، وإذا اضطرت إلى تربيتهم أدبياً على الخصوص كانت تربية مضطربة على غير أساس، كما سبق توضيحه فى بحث التربية الأدبية، ولعل هذا هو السر فى أن أول شىء بدأت به الرسالة فى مجال الإصلاح هو العلم، لأن الالتزام بشىء فرع عن العلم به، يشير إلى هذا قول الله فى بيان مهمة الرسول ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٤ - عدم فهم الزوجين لقيمة الحياة الزوجية، وتركيزها على ناحية المتعة والناحية المادية فقط، التى تبعد بهما عن الفهم الصحيح لرسالة الأسرة وما يجب لها من تعاون ووفاء وإخلاص، فيكون تشكيلها على أساس غير متين يؤدي إلى المنازعات والتصرفات غير الكريمة، تنعكس آثارها حتماً على رعايتها للنسل وعلى سلوكه فى هذا الجو المضطرب المنحرف، فيحاول الأولاد أن يبحثوا عن الهدوء والراحة فيظنونها فى أشياء كثيراً ما تكون غير كريمة، كالانصراف إلى المقاهى والملاهى وتناول المشروبات المحرمة والشواغل التى يتوهم أنها توفر لهم الراحة، والوالدان إذا لم يظهرأ أمام الأولاد بالمظهر الكريم تمزقت نفوسهم، وسقطت مهابتهم من أعينهم، وبالتالي يكون العقوق والاستهانة بالتوجيهات وبالقيم، ويكون الشذوذ فى صورته المختلفة.

٥ - تعدد الزوجات يؤدي إلى انحراف النشء إذا كان لغير حاجة معقولة ولم ترع فيه قواعد العدل التي أمر بها الدين، فقد لوحظ أن الضرائر يغرسن في نفوس أولادهن كراهيتهم لأبيهم وكراهيتهم لبعضهم لبعض، وهذا له أثره السيء على سلوكهم، وقد يؤيده ما كان يحدث في قصور السلاطين أو العظماء الذين أكثروا من الزوجات والإماء، وما كان لذلك من انعكاسات غير طيبة على الذرية أدت إلى تنازعهم الدموى على الملك والسلطان.

٦ - الطلاق يؤدي أحياناً إلى تشرد الأولاد وانحرافهم إذا كان لغير ضرورة ولم ترع فيه الالتزامات والآداب الشرعية، فالأولاد في حضانة أمهم لا يأخذون القسط الوافر من الرعاية الأدبية على الأخص، وهم في رعاية أبيهم بعيداً عن أمهم يفتقدون العطف والحنان خصوصاً في ظل زوجة الأب، على ما هو مشاهد محسوس في غالب هؤلاء الزوجات الجديرات من عدم الإخلاص في رعاية هؤلاء الأولاد كرعائتهن لأولادهن، والأولاد في كلتا الحالتين يسخطون علي المجتمع وعلى من تسبب لهم في هذا الوضع القلق، ويتنفس ذلك السخط عن تصرفات شاذة حيال أفراد الأسرة وحيال المجتمع الذي يعيش فيه هذا النشء الممزق النفس الشائت الأعصاب، ويحاول أن يعتمد على نفسه في وقت مبكر. وقل أن يكون اعتماده إذ ذاك على وسائل كريمة شريفة فيكون الانحراف.

٧ - تفضيل بعض الأولاد على بعض في الأسرة الواحدة يؤدي إلى الغيرة والتحاسد والتنافس غير الشريف وإلى عقوق الوالدين وتمكّن روح الأنانية في نفوس الأولاد، وذلك كله له عواقبه الوخيمة على السلوك.

٨ - هناك عوامل أسرية أخرى كالتسمية القبيحة التي رأينا آثارها في بحث التسمية، يجب التنبيه لها، وكل عامل من هذه العوامل - كما سبق أن أوضحته - يضع بصمته على سلوك النشء، وانحرافهم قد يكون لسبب بسيط من هذه الأسباب، وقد يكون نتيجة عدد منها، وقد أثبت الباحثون أن العوامل الأسرية تودى إلى ٧٦٪ من حالات الانحراف.

الأسباب الخارجية : وهى تشمل كل ما يؤثر فى السلوك بعيداً عن الموروثات والعوامل الأسرية . وقد مر بيان أكثرها عند الحديث عن البيئة كعامل من عوامل التأثير فى السلوك ، ونجمل أهمها فيما يلى :

١ - المدرسة بمناهجها ومدرسيها وتلاميذها وأسلوب الدراسة فيها ، إن لم يكن كل ذلك على استقامة على النحو الذى شرحناه من قبل أدى إلى الانحراف حتماً ، وذلك مشاهد معروف .

٢ - زملاء والأصدقاء فى المدرسة والشارع والعمل لهم تأثير على من يتصل بهم ، يقول الشاعر فى بيان سريان الأخلاق من الأصدقاء بعضهم إلى بعض :

واختر صديقك واصطفيه تفاخرا إن القرين إلى المقارن ينسب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنها تعدى كما يعدى السليم الأجرب
وعلى رأس كل ما يقال فى ذلك قول النبى ﷺ « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك - يعطيك - وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحاً منتنة » (١) .

٣ - الجيران وهم كالأصدقاء يؤثر بعضهم فى بعض ، بالتقليد والتلقين ، وإذا كانوا منحرفين تعدى انحراف بعضهم إلى بعض ، وهم أشد تأثيراً من الأصدقاء لطول الملازمة . والجيران إذا كانوا صالحين هادئين وفروا الجو الهادى لمن يجاورهم ، وإذا كانوا على غير ذلك كان القلق والتنازع والتصرفات غير الكريمة ، وانساق الصغار مع الكبار فى زحام هذا النزاع .

٤ - نوع العمل الذى يزاوله الناشئ يؤثر فى سلوكه ، فالذى يعمل فى محل بيع الخمر أو فى دور اللهو والترفيه سيتأثر حتماً بالجو الذى يعمل فيه ، وذلك لا يحتاج إلى دليل .

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى .

٥ - وسائل الإعلام والتثقيف المختلفة ذات الميول الخاصة والتأثير على السلوك، والتي لها هدف معين من الدعاية أو التوجيه لبدأ تمليه عليها أغراض غير كريمة، وهي كلها فى قوة إغرائها - كما قدمنا - ذات تأثير شديد على سلوك الكبار والصغار معاً، ففيها ما لا ينبغي أن يطلع عليه الصغار، وقد قدمنا التحذير من خطر هذه المؤثرات .

٦ - العرف والتقاليد والقوانين والتيارات والمذاهب وكل ما يسيطر على المجتمع له تأثير قوى على سلوك النشء وغيرهم . وقد سبق توضيح ذلك . وقدّر الخبراء نسبة تأثير هذه العوامل الخارجية بنحو ١٤ ٪ من حالات الانحراف، وما بقى بعد ذلك فهو لعوامل أخرى مختلفة .

* * *

الفصل الثانى فى مظاهر الانحراف واختلاف نسبته

ليست مظاهر انحراف النشء قاصرة على الشذوذ الجنسى ومعاكسة الفتيان والفتيات بعضهم لبعض، وشرب الخمر والقمار والملابس الخاصة، بل إن مظاهره كثيرة متنوعة يشملها كل خروج عن حدود الدين والأخلاق، فمنها الفراغ والتسكع فى الشوارع وكثرة الجلوس على المقاهى وارتياح الحداثى والأماكن العامة لغرض المتعة غير البرئية، وارتياح دور اللهو والإسراف فى السهر، وشرب الخمور والمخدرات والتدخين المفرط وما إلى ذلك، ومنها التسول واحتراف المهن البسيطة والقناعة بالمهلل من الثياب والردىء من الطعام والمسكن، وإيثار شرب الشاى والدخان على الطعام والكساء، ومنها غرور العقل واحتقار المقدسات والطعن فى القيم والتحرر من القيود الأدبية، وعدم الحياء من ارتكاب المنكر والميل إلى الوجودية المسرفة وما يتبع ذلك من إطلاق الشعور ولبس الحلى للفتيان وتزينهم بزينة النساء، وإسراف الفتيات فى الزينة وعرض مفاتنهن بشكل مثير، وترديد الأغانى الخلة والتفوه بالألفاظ النابية والرحلات الجماعية المختلطة بدون تحفظ، ومنها الاختلاس والسرقه والنشل والغش والتحايل والتزوير والرشوة وجحد الحقوق والإغراق فى الاستدانة والشهه المادى المثير، ومنها الإهمال فى أداء الواجبات وعدم الشعور بالمسئولية وتمكن الروح الفردية وضعف الأخلاق الاجتماعية، ومنها عقوق الوالدين وعدم توقير الكبير ورحمة الضعيف، وسوء استعمال حق المساواة وتطبيقه تطبيقاً غير سليم.

هذه المظاهر وغيرها من مظاهر الانحراف تختلف من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة بل من زمن إلى زمن، فهى فى المجتمعات المتدينة أقل منها فى المجتمعات المتحررة، وفى الأسر المحافظة أقل منها فى المتمدينة، وهناك بعض مظاهر من الانحراف تتناسب طردياً مع المدنية الحديثة فى جوانبها الشكليه، فكلما زادت

المدنية زاد الانحراف، ويشاهد هذا في الأقاليم المختلفة في القطر الواحد، وفي الدول الموجودة في قارة واحدة. فكلما اشتد الاتصال بمدنية الغرب وقوى التقليد وتيسرت الإمكانيات زاد الإنحراف وكثر اللهو والمجون والتعلق بالقشور وعبدت المادة، وبدأ التحرر من الأديان والقيم الأدبية، وكلما بعدت هذه الدول أو قلّ اتصالها بالمدنية بقي للأخلاق تقديرها وقلّ الانحراف، وهذا كله في مظاهر معينة من الأخلاق، وإن كانت هناك قوة وتقدم في مظاهر أخرى تتناسب طردياً مع المدنية.

والمعروف أن الانحراف تزداد نسبته في العالم الغربي، وخاصة في العصر الأخير على أثر النهضة الصناعية وشیوع الرخاء وتقديس المادة وقيام المذاهب الإلحادية واختراع الأساليب الحديثة للتربية بوحى من البيئة وإلهام السياسة، وهذه بعض صور تدل على ذلك:

في أهرام ٢٠/٧/١٩٦٣ من واشنطن: ازدادت موجة الانحراف بين الشباب في أمريكا إلى حد كبير. وسجلت نسبة الجرائم خلال العام الماضى رقماً قياسياً فبلغت حالات السلب والسرقة والاغتصاب حوالى مليونين وثمانية وأربعين ألفاً وثلثمائة وسبعين حالة. (٢٤٨٣٧٠) بزيادة قدرها ٦٪ كما ذكرت الإحصاءات أنه قد اجتاحت بريطانيا موجة خطيرة من الانحراف بين المراهقين الذين تقل أعمارهم عن واحد وعشرين عاماً، وقد بلغ عدد الذين قبض عليهم من هؤلاء الشباب ١٨٦١٠، وبلغ عدد الجرائم في بريطانيا رقماً قياسياً خلال العام الماضى فوصل إلى ٢١٤,١٢٠ جريمة في لندن وحدها.

وفي أهرام ٣٠/٨/١٩٦٤ في برقية من لاهاي: انتهت أعمال المؤتمر الدولى التاسع للقانون الجنائى الذى اشترك فيه أكثر من ٥٠٠ قاض من ٥٤ دولة فى جميع أنحاء العالم، وقد دعا المؤتمر إلى تقليل العقوبات الخاصة بالسلوك الجنسى وقد أوصى المؤتمر فى قراراته أنه يجب عدم اعتبار الفسق جريمة.

وفي أهرام ١٣/١/١٩٦٥ برقية من لندن فى ١٢ منه: أنه يوجد طفل غير

شرعى بين كل ٧ فى لندن، أعلن ذلك الدكتور «ستيوارت» مدير إدارة الرعاية الطبية فى لندن .

وفى أهرام ٢٤ / ٤ / ١٩٦٥ : بدأت النساء فى السويد حملة واسعة ضد الحرية الجنسية، وقد وقعت أكثر من ١٠٠ ألف سيدة على التماس للحكومة احتجاجاً على هبوط المستوى الخلقى فى العلاقات الجنسية .

وفى أهرام ٣٠ / ٥ / ١٩٦٥ برقية من واشنطن فى ٢٩ منه : المطالبة فى أمريكا بعدم اعتبار الشذوذ الجنسى مما يمس السرف . وألفت لذلك جمعيات ، ففى أمريكا خمسة عشر مليوناً من المصابين به .

وفى أهرام ٨ / ١١ / ١٩٦٦ من كوبنهاجن فى ٧ منه : تم افتتاح جمعية هولندية تدعو إلى الحرية الجنسية . وقد قام بتأسيسها اثنان وعشرون من الشباب ، وستقوم الجمعية بالدعوة إلى إلغاء الزواج وإباحة الإجهاض والعلاقات الجنسية الشاذة .

وفى أهرام ٥ / ٤ / ١٩٦٧ برقية من جينزفيل «فلوريدا» فى ٤ منه : شَنَّ حوالى ألفى طالب بجامعة فلوريدا غارة على عنابر نوم الطالبات حيث تقيم حوالى ١٦٠٠ طالبة، ولكن البوليس حال دون وصولهم إليهن، بينما وقفت الطالبات فى النوافذ تلقى إلى الطلبة بأكثر من مائة قطعة من ملابسهن الداخلية . وقد مر فى الصفحات السابقة شهادة الخبراء الأجانب التى تثبت شيوع الانحراف فى أمريكا وإنجلترا .

* * *

الفصل الثالث

فى علاج الانحراف

لقد تطور علاج الانحراف وأخذ شكلاً آخر غير ما كان عليه فى الماضى، خصوصاً فى القرن العشرين، بناء على تطور النظرة إلى الانحراف ومعاملة المنحرفين كمرضى يجب علاجهم، فبعد أن كان الحدث يساق فى الماضى إلى أقسام الشرطة كمجرم خطير ويحقق معه بدقة وعنف، أنشئت فى البلاد المتحضرة مكاتب خاصة تتولى التحقيق مع الأحداث فى جو بعيد عن المظاهر العسكرية والبوليسية، وبعد أن كانوا يحاكمون أمام المحاكم العادية أنشئت لهم محاكم خاصة فى أغلب الدول، وزودت بالباحثين الفنيين والمراقبين الاجتماعيين لمعاونة المحكمة فى كشف أسباب الانحراف واقتراح طريقة العلاج، كما يحاكم الحدث بحضور أبويه فى جو عائلى بعيد عن العلانية المشاهدة فى المحاكم، وبعد أن كان القصد من محاكمته عقوبته بقسوة كانت تصل أحياناً إلى الإعدام أصبح هدف محاكمة الأحداث الآن رسم طريق جديد للعلاج والتربية، وبطل نظام الحبس فى الإصلاحات، واستحدثت وسائل جديدة للتربية، كالمدارس والمؤسسات المختلفة، ورصدت الأمم المختلفة الأموال الكثيرة لمعالجة انحراف الأحداث.

والإسلام فى معالجة انحراف النشء يعمل على إعادته إلى الطريق السوى على ضوء ما تقدم بحثه، مع مراعاة القواعد الأساسية والمنهج السديد للعلاج، بأن يكون علاجاً جذرياً يمتد إلى الأعماق، شاملاً يتناول كل منفذ من منافذ الانحراف، وتعاونياً تشترك فيه كل الجهود، ومتمشياً مع قواعد التربية التى بينها المختصون.

والعلاج يلزمه مسح شامل لكل أسباب الانحراف والإمكانات التى تشارك فيه، ويخطئ كثير من الباحثين والكاتبين الذين يلقون التبعة فى الانحراف أو علاجه

على جهة معينة دون اعتبار للجهات الأخرى كأنها بمعزل عن المشكلة، أو ضعيفة الأثر فيها، ويكون الخطأ في اعتذار الآباء مثلاً عن سوء السلوك لأولادهم بالعيب على المدرسة أو على برامج الإذاعة أو على الصحف أو دور اللهو وما إليها، وكذلك من يحملون على تعدد الزوجات وإباحة الطلاق، حين يبحثون عن تشرد الأطفال، والحكم العادل لا بد أن يقدر كل الظروف ويتقصى كل الأسباب .

وهناك أمور يجب أن تتبع في كل علاج، وهي العلم والحال والعمل، أو الوعي والاقتناع وإرادة التنفيذ، لا بد من العلم بالانحراف وأسبابه وآثاره وطرق علاجه وهو توعية يستطيع القيام بها كل من له إلمام بأصولها، وبعد العلم بذلك والإيمان بوجوب العلاج، يجب أن تتوجه الإرادة إليه، فمجرد العلم لا يكفي، وكم من عالم بالخطر وهو لا يريد أن يبعد عنه، فلا بد من حث الإرادة على التوجه إلى العمل، وذلك يكون بالترغيب والترهيب بالوسائل المتعددة من مادية أو أدبية، وتختلف باختلاف الأشخاص ومظاهر انحرافهم، والذي يستطيع ذلك هم المختصون الفنيون الفاهمون تماماً لسبب الانحراف وأثره، وبعد توجه الإرادة يأتي العلاج، والعلاج لا يكون فقط لمظاهر الانحراف دون علاج أسبابه، فذلك لا يكون علاجاً حقيقياً، كالدهان على الوبر كما يقول العربي .

الإسلام وضع علاجاً مناسباً لكل سبب من أسباب الانحراف، لأن هدايته شاملة وافية، وكان بحسبنا أن نحيل القارئ أيضاً إلى التماس العلاج من هدى الإسلام في رعاية النشء الذي قدمنا كثيراً منه، ولكن لا بأس من الإشارة إلى علاج هذه الأسباب التي أجملتها في الفصل الأول .

(أ) علاج العوامل الذاتية :

إن المنحرفين بسبب موروث كالتخلف العقلي أمر الإسلام بالحجر على تصرفاتهم المالية بالذات ومراقبة سلوكهم عن طريق تعيين أوصياء عليهم، كما قال تعالى في السفهاء: ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾

[النساء: ٥] وكما قال: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والمنحرفون بسبب مكتسب كالتشويه الخلقى يعالجون بما يأتى:

١ - تعريف أوليائهم بضرر التقصير فى رعايتهم، فهم أمانة سيسألون عنها.
٢ - وتعريفهم بأن المشوهين قد يكون فيهم - إذا أحسنت رعايتهم - أشخاص بارزون فى نواح مختلفة، وقد حفظ التاريخ أسماء بعض من عرفوا بألقابهم الدالة على حالتهم، منهم الأعشى الشاعر المعروف، والأعمش سليمان ابن مهران أحد علماء القراءات، والأعرج عبد الرحمن بن هرمز راوية أبى هريرة، وأبو العلاء المعرى وكان ضريباً، وهو معروف بشعره وفلسفته فى الحياة، وقتادة ابن دعامة الدوسى من أئمة الفتيا فى عصر التابعين وكان ضريباً، إلى غير ذلك من العلماء المبرزين.

٣ - رفع معنويات المشوهين بعدم احتقارهم، وبحثهم على تكميل نقصهم بالمعانى الأدبية، والله سبحانه قد نهى عن السخرية منهم، فقال: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

٤ - مساعدتهم عند العجز بالوسائل التى تقيمهم على الطريق المستقيم، والوصية بهؤلاء معروفة فى الدين، وقد خفف الله عنهم بعض التكاليف مراعاة لحالهم، وذلك كالحجاء، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

(ب) علاج العوامل الأسرية:

١ - الفقر علاجه المساعدة، وعدم احتقار الفقراء، والتوعية بأن الفقر مع الكمال الأدبى يفتح أبواب الخير ويرفع صاحبه مكاناً عالياً، والاجتهاد فى إيجاد

عمل مناسب يدر الرزق . وفى مصارف الزكاة مصرف خاص للفقراء والمساكين، ونصوص المساعدة أشهر من أن تذكر، وكذلك نصوص عدم عيب الفقراء، كما أن من العلاج تنفيذ العقوبة المقررة على الجرائم التى يلجئ إليها الفقر كالتسول .

٢ - وعلاج الترف بالتوعية بوجوب شكر الله على النعمة بالاستقامة، وبيان ضرر المعاصى المترتبة على الغنى الذى لا يعصمه دين، وتنفيذ العقوبات على المخالفات التى ارتكبت بسببه، والحجر على السفهاء .

٣ - والجهل علاجه العلم والتوعية، والسبل إليه ميسرة، فالعلم يدفع الناشئ إلى طريق الخير كأحد العوامل فى الاستقامة، ويدفع أولى الأمر إلى تربيته على هدى وبصيرة، ومرغبات العلم كثيرة مشهورة .

٤ - وعدم فهم الزوجين لرسالة الأسرة وحقوق الزوجية يكون بالتوعية، لوجوب بناء الأسرة على اختيار جيد لعناصر الدين والخلق، والتوصية بأداء واجب الزوجية، وفهم رسالة الأسرة والقيام بفض المنازعات حسب الإرشاد الذى وضعه الدين، وتأديب المنحرف على انحرافه، ومحاولة وضع الناشئ فى بيئة أخرى كالمدارس الداخلية بعيداً عن هذا الجو القاتم القلق السىء .

٥ - وتعدد الزوجات تجب التوعية بعدم اللجوء إليه إلا لضرورة، ومع جوب العدل والتسوية بين الزوجات، وبتحذير الضرائر من شحن الأولاد بعوامل الكراهية والحق لغيرهم، وبتوصية الأبناء بواجبهم نحو أبيهم وإخوتهم .

٦ - والطلاق يحذر منه إلا لضرورة، فهو أبغض الحلال إلى الله، ويراعى تنفيذ الإلتزامات الواجبة عند الطلاق بدقة، وتوجيه الأم الحاضنة إلى حسن رعاية ولدها، وتوجيه الأب إلى العناية بالولد إن تربى فى ظل زوجة أبيه، وكذلك بتوجيه الولد نحو القيام بواجب الأبوة، وكذلك بتوجيه الأم إلى عدم تصوير الحياة لابنها تصويراً قاتماً، وعدم حملها على كراهية والده وزوجته، وتوجيه زوجة الأب إلى الخوف من الله فى التقصير فى حق هذا الولد، فهو فى ذمتها كما فى

الحديث « كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته » وجاء فيه « والمرأة راعية فى بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيته »^(١).

٧ - وتفضيل بعض الأولاد منهى عنه لغير حاجة - كما سبق بيانه - وعلاجه يكون بالتوعية.

٨ - والتسمية وغيرها يعرف الواجب نحوها من البحوث السابقة.

(ج) علاج العوامل الخارجية :

١ - علاج المدرسة يكون باتباع التوجيهات التى وردت فى بحث التربية الأدبية .

٢ - والأصدقاء يجب اختيارهم من ذوى الأخلاق الحسنة .

٣ - وكذلك الجيران يجب اختيارهم على حد المثل المعروف : خذ الجار قبل الدار . كما يجب الصبر على إساءتهم وعدم مقابلتها بمثلها، ومحاولة إيجاد حسن تفاهم بين الأولاد بعضهم مع بعض، والتوضيعة بحسن الجوار مشهورة، يكفى منها قول النبى ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »^(٢) وقوله « والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن » قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه » أى شروره^(٣).

٤ - والعمل يجب أن يختار بعيداً عن الرِّيات، وفرصه كثيرة، والبسيط من العمل مع الاستقامة خير من الكبير مع الانحراف .

٥ - وسائل التثقيف والإعلام سبق الحديث عنها، وتجب الرقابة عليها رقابة دقيقة من الغيورين على الأخلاق والدين، وتوعية المشرفين عليها بواجبهم وترهيبهم من الميول السيئة والأغراض الفاسدة، وعدم الاهتمام بالدنيا اهتماماً ينسيهم الواجب الدينى والاجتماعى .

٦ - والعرف والتقاليد والقوانين وما يشبهها يجب تطويعها لخدمة الدين والأخلاق، على ما سبق بيانه فى موضعه .

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر وعائشة .

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

خاتمة

أما بعد، فكل النظريات التربوية الحديثة لا ينبغي أن تؤخذ كلها بحذافيرها، بل يختار منها ما يتلاءم مع مقررات الدين والأخلاق، وما يستهدف الغاية النبيلة لوجود الأمة الإسلامية حاملة مشعل الهداية التي ينبغي أن تظهر على كل هداية، فكثير من هذه النظريات مُعرض لا يراد منه الخير، كما هو مقرر عندنا، خصوصاً ما يورد منه إلى البلاد الشرقية والإسلامية، وقد علمت من قبل خطر تعليم البنات في المدارس الأجنبية دون رقابة عليهن، وما يقصده منشئها من إفساد عقيدة الإسلام عن طريق إفساد الأسرة.

والدين ينهى عن التقليد الأعمى فى السوء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ * قال أَوْ لَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤] وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وفى الحديث الشريف: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبر بشبرا وذراعاً بذراعاً، حتى لو سلكوا جحر ضبً لسلكتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال «فمن»؟^(١).

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى .

ومن أحدث ماورد في بيان فساد التربية الأجنبية ما نشر في أهرام ١٤/٩/١٩٦٨ : أنه في ولاية « ميتشجان » بأمريكا مدرسة مشتركة أبلغ بعض تلاميذها أن إحدى الحصص في الجدول اليومي مقررة لدخول فصل مظلم تماماً يسمح فيه للأولاد والبنات بالتقبيل، وبعدها يعودون إلى فصولهم لكتابة موضوعات إنشائية عن إحساساتهم داخل الحجرة المظلمة، واحتج الآباء، ولكن في اجتماع لهم ضم ثلثمائة منهم وقفت إحدى الطالبات وعمرها ست عشرة سنة تقول : ما الضرر في حصة نتعلم فيها الحب على الطبيعة؟ إننا لا نريد أن نتعلم شيئاً من الكتب . لكن الآباء اعترضوا كما اعترضوا على كثير من الوسائل التعليمية الحديثة الأخرى، ولدهشة الجميع وقف ناظر المدرسة يقول : إنه لا يعلم شيئاً عن هذه الحصص، ولن يعتبرها جزءاً مشروعاً من البرنامج التعليمي في المدرسة .

فالوسائل التربوية الصحيحة لا بد أن تتناسب مع البيئة في عقيدتها وعرفها وتقاليدها وفي أهدافها وسائر الظروف .

ومما يدل أيضاً على فساد نظرياتهم التربوية وعدم ملاءمتها لبيئتنا الشرقية والإسلامية ما قاله «أمرسون» في كتابه الذي ترجمته جامعة الدول العربية بمشورة السفارة الأمريكية : من أراد أن يكون رجلاً ينبغى أن ينشق على السائد والمألوف، ومن أراد أن يجمع ثمر النخيل ينبغى ألا يعوقه ما يسلمه الناس خيراً، بل يجب عليه أن يكشف إن كان ذلك خيراً حقاً، لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك، حر نفسك يؤيدك العالم، الخير والشر اسمان يمكن في سهولة شديدة أن ينتقلا إلى هذا أو ذاك، والشيء الوحيد الصحيح هو ما يتبع تكويني، والشيء الوحيد الخطأ هو ما يقاومه . « ص ١٣٢ » ويقول في صفحة ١٥٤ : إن من ينبذ الدوافع العامة الإنسانية ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لا بد أن يتميز ببعض صفات الآلهة .

ويعقب الأستاذ محمد محمد حسين^(١) على هذا بقوله : هذا الكاتب

(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٠ ص ٣٦ وما بعدها .

وأمثاله يعتمدون على أن الأذكياء سوف يجدون في كلامه ما يرضى غرورهم،
وأما الأغبياء فسوف يقفون أمامه مشدوهين كأنهم أمام معجزة، وأما الشباب
فسوف يجدون فيما يتضمنه من الثورة التي تحطم ولا تبقى ولا تذر - مجالاً
للتنفيس عن نشاطهم ونزوعهم إلى إثبات وجودهم من كل وجه - وهذا الكاتب
الصهيوني يتعقب شعائر الدين كلها بالتسفيه والسخرية اللاذعة، فالتوبة والندم
عنده نوع آخر من الصلاة الزائفة ونقص في الاعتماد على النفس وعجزه في
الإرادة، والرحمة والعطف لا تقل عن الندم وضاعة «١٥٧» فيجب الحذر من
أمثال هذه الأفكار، وتجب العودة إلى حظيرة الدين وأساليبه القومية. وبحمد الله
قد وضع علماء الإسلام مناهج تربوية حكيمة جاء بعضها مستقلاً في كتاب
خاص، وبعضها جاء فصولاً، في كتاب، وبعضها وصايا، وهكذا، ومن التأليف
الإسلامية في هذا الموضوع: رسالة القابسي وهو أبو الحسن علي بن محمد
المتوفى سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) وكتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»
لابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١هـ ورسالة «أيها الولد» وكتاب «إحياء علوم
الدين» لأبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ وكتاب «تعليم المتعلم طريق التعليم»
لبرهان الدين الزرنوجي المتوفى سنة ٥٩١هـ وكتاب «تحفة الودود في أحكام
المولود» لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ ومقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ.

وهناك كتب أخرى قديمة وحديثة مثل: رسائل إخوان الصفا، والمدخل
للعبدري، والسياسة لابن سينا، والبيان والتبيين للجاحظ، وأدب الدنيا والدين
للماوردي وتذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة. وجامع بيان العلم وفضله لابن
عبد البر، وأحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن أبي زيد، والتربية عند العرب
لخليل طوطح. والإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي، وتاريخ التربية
الإسلامية لأحمد شلبي وذلك إلى جانب وصايا كثيرة موجودة في كتب الأدب.
وأعود فأكرر التنبيه إلى أن تربية الأولاد ومعالجة انحرافهم مهمة جماعية،

وعلى المجتمع كله بأفراده وهيئاته أن يتعاونوا عليها . ونحن نعلم أن الحكومات فى كثير من البلاد تساعد بجهد وإخلاص فى تمويل التربية والتعليم، وتيسر كل السبل لتقويم النشء، فالذى لا يستطيعه الوالد تيسره الحكومة، ومجانبة التعليم مضمونة حتى المراحل العالية فى أكثر البلاد . والمهم هو العناية بالناحية الخلقية إلى جانب الناحية العقلية والجسمية، ونحن نستحث الحكومات والهيئات والأفراد أن تزيد من عنايتها بالأولاد بما تقدمه من خدمات فنية وعينية وبشرية .

* * *

أولاد النبي ﷺ

المتفق عليه من أولاد النبي ﷺ ستة، وهم من الذكور: القاسم وإبراهيم ومن الإناث أربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. على اختلاف فى أى البنات أكبرهن، وإن كان الراجح أن زينب هى كبراهن، وفاطمة صغراهن. وكلهن من السيدة خديجة رضى الله عنها، وكذلك القاسم، أما إبراهيم فمن مارية القبطية. وجميع البنات أدركن الإسلام، وهاجرن إلى المدينة، كما أن جميع أولاده توفوا فى حياته ﷺ، ما عدا فاطمة ماتت بعده ببضعة أشهر.

واختلف فيما عدا هؤلاء الستة. فعند ابن إسحاق صاحب السيرة: أن من أولاده الذكور: الطاهر والطيب، فيكون مجموع الأولاد ثمانية، أربعة ذكور وأربع إناث وقال الزبير بكار العلامة بالانساب والمتوفى سنة ٢٥٦هـ: أن النبي كان له ولدان سوى إبراهيم وهما القاسم وعبد الله الذى مات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب والطاهر، فله ثلاثة أسماء، وهذا الذى قاله ابن بكار هو قول أكثر أهل النسب، وقال الدارقطنى: هو الأثبت. وعلى هذا تكون جملة أولاد النبي ﷺ سبعة، ثلاثة ذكور وأربع إناث.

والخلاف فى عدد أولاده كثير، فقد أوصل بعضهم العدد إلى ١٣، وحسبنا ما عليه الأكثر، وهو سبعة، القاسم وعبد الله ولدا قبل المبعث، وقيل: إن عبد الله ولد بعده، وقد مات الاثنان قبل المبعث أيضاً فى سن الرضاع، وقيل: إن القاسم مات بعد الإسلام.

وإليك كلمة عن كل واحد من أولاده بترتيب الولادة على الأصح:

١ - القاسم:

هو أول ولد للنبي ﷺ على أصح الأقوال، ولذلك كان يكنى به على عادة العرب، وقد ولد قبل النبوة، واختلف كثيراً فى مدة حياته ما بين سبعة أيام إلى سن التمييز، كما اختلف فى وقت وفاته، فقيل قبل البعثة. وجاء فى مسند

الغريابى « المتوفى فى الحرم سنة ٣٠١هـ » ما يدل على أنه توفى بعدها، وروى أن خديجة لما حزنت عليه كثيراً دَرَّ لبنها فقالت : لو أن الله أبقاه حتى يتم رضاعه !! فأخبرها النبى ﷺ أن تمام رضاعه فى الجنة، وقال لها « لو شئت لأسمعنتك صوته » فهذا الخبر يدل على أن وفاته كانت بعد الإسلام، وأنه توفى قبل الحولين المعتادين فى الرضاعة، لكن سند الحديث ضعيف .

كما يمكن الاستناد فى وفاته بعد البعثة عندما بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجبية - إلى أنه لما مات قال العاصى بن وائل : قد أصبح محمد أبتراً، فأنزل الله ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَر * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ كما يمكن الاستناد فى ذلك إلى حديث « ما أعفى أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد » قيل : ولا القاسم؟ قال : « ولا القاسم ولا إبراهيم » لكن الاستدلال ضعيف فضلاً عن عدم الارتياح إلى سنده .

فإن قيل : إنه توفى بعد البعثة ترجح القول بأن زينب ولدت قبله، لأنها ولدت قبل البعثة بعشر سنين . وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب قابلة خديجة فى كل أولادها تقول : إن بين كل ولدين لها سنة .

٢ - زينب :

هى كبرى بناته بلا خلاف، وهى أول من تزوج منهن، ولكن الخلاف فيها وفى القاسم أيهما أولاً .

قال ابن إسحاق : إنها ولدت وكانت سن النبى ثلاثين سنة [ولد النبى فى ١٢ من ربيع الأول من عام الفيل يوافق ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١م] أى قبل البعثة بعشر سنين، تزوجها أبو العاصى بن الربيع، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد التى كان يهش لها النبى عند زيارتها له بعد موت خديجة، كما فى البخارى .

وأبو العاصى هذا مختلف فى اسمه فقيل : لقيط، وقيل : مقسم، أو مهشم - أو الزبير، أو هشيم، أو قاسم، أو ياسر . لكنه معروف بكنيته، وهى « أبو العاصى » . أما أبوه فهو الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى العشمى .

ولما جاء الإسلام أسلمت زينب وبقي زوجها على الكفر، ولم تهجر مع أبيها بل ظلت مع زوجها حتى أسرفى « بدر ». وأرسلت في فدائه بقلادة لها، ولما عرفها النبي ﷺ استشار الصحابة في فدائه ورد القلادة، فطیبوا بذلك نفسا، فأعاده إلى زينب وشرط عليه أن يتركها تهاجر.

وذكر ابن إسحاق أنه لما سمح لها بالهجرة تجهزت فحملها في هودج على بعير ساقه أخوه كنانة بن الربيع، ومعه قوسه وكنانته، فخرج رجال من قريش فأدركوها بذي طوى، فسبق إليها هبار بن الأسود [أسلم بعد ذلك] فراعها بالرمح وكانت حاملاً فوقعت وأسقطت، فقام لها كنانة ونثر كنانته وقال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمي، فتكركر الناس عنه.

وجاء أبو سفيان في جلة قريش فقال: كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكف، فقال: قد عرفت مصيبتنا ونكبتنا من محمد، فيظن الناس أنك إذا خرجت ببنته علانية أنه عن ذل من مصيبتنا وضعف، وما لنا بحبسها عن أبيها حاجة، ولكن ارجع حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث أن قد ردناها فسلها سرا وألقها بأبيها، ففعل.

فأقامت ليالى حتى خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه الأنصاري، وكان النبي ﷺ قد بعثهما فقال « كونا ببطن ياجج حتى تمر بكما زينب، فاصحباها حتى تأتياني بها، فقدما بها عليه، وروى الطبراني برجال الصحيح ما يقرب من هذا، وأنها لما عادت إلى مكة ظلت في بيت أبي سفيان حتى تسلمها نساء بنى هاشم، وظلت تعاني من الوجع حتى ماتت، فكانوا يرون أنها شهيدة. ووقع أبو العاصي مرة أخرى أسيراً في سرية زيد بن حارثة إلى « العيص » في ٧٠ رجلاً لأعترض غير لقريش، فاستجار بزوجه زينب ووسطت أباها في رد ما أخذ منه وقال لها « أكرمي مثواه ولا يخلص لك » ولما عاد إلى مكة ورد الأمانات أسلم وهاجر. فرد النبي زينب إليه، بالنكاح الأول كما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس، وقال الترمذي: ليس في إسناده بأس، وكان

ذلك بعد سنتين من إسلامه سنة ست أو سبع، وقيل: بعد ست سنوات من الهجرة. وبدء السنتين أو الست غير معروف، وقيل: ردها إليه بعد انقضاء العدة، وهو مشكل أيضاً، وجاء في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه ردها له بنكاح جديد، ورواه الترمذى وابن ماجه، وكان ذلك سنة ست أو سبع وهو يفيد انقضاء العدة، والموضوع مباحث فقهيًا في الكتب المختصة.

وقد أثنى النبي ﷺ على أبي العاصي في مصاهرته وقال «حدثني فصدقني، ووعدني فوفاني» كما في الصحيحين، وذلك بمناسبة ما أثير من خطبة علي رضي الله عنه لبنت أبي جهل على فاطمة بنت النبي ﷺ.

توفيت رضي الله عنها في أوائل سنة ثمان من الهجرة، وروى مسلم عن أم عطية قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله قال «اغسلنها وترا، ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً» ورواه البخارى بدون تسمية زينب، وقيل: إن التي غسلتها أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم سلمة، وأن التي شهدت أم عطية غسلها وتكفيها إنما هي أم كلثوم. وردُّ بأن المحفوظ أن قصة أم عطية هي في زينب كما في مسلم، ويحتمل أن تكون قد شهدتهما جميعاً، وصلى عليها النبي ﷺ ونزل في قبرها، ومعه زوجها أبو العاصي، وجعل لها نعش، قيل: إنها كانت أول من اتخذ لها ذلك، ولا يعارضه ما يأتي أن فاطمة أول من غطى نعشها.

وقد ولدت من زوجها أبي العاصي اثنتين، هما:

(أ) علي، ومات صغيراً، وقد ناهز الحلم. وكان بعد موته أمه في حياة أبيه، وقيل: إنه قتل يوم اليرموك، وكان رديف النبي ﷺ يوم فتح مكة.

(ب) أمامة، وهي التي حملها النبي ﷺ في الصلاة على عاتقه كما رواه الشيخان عن أبي قتادة، وكان يحبها، روى أحمد عن عائشة أن النجاشي أهدى النبي ﷺ حلة فيها خاتم من ذهب فصه حبشى، فأعطاه أمامة، وأخرج أحمد وغيره بسند حسن عن عائشة أن النبي قد أهديت له قلادة من جَزَع مَعْلَمَات بالذهب، ونساؤه حوله مجتمعات، وأمامة تلعب في جانب البيت بالتراب

فأهداه لها، وكن يظن أنه سيهديها إلى عائشة عندما قال «لأدفعها إلى أحب أهلى إلى» .

وتزوجها على بعد فاطمة بوصية منها، زوجها له الزبير بن العوام، وكان أبوها قد أوصى بها إلى الزبير، وكان على قد أمر المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يتزوجها فتزوجها، فولدت له يحيى، وبه كان يكنى، وماتت عند المغيرة، وقيل: لم تلد لعلى ولا للمغيرة، وقيل إن الذى تزوجها بعد على هو أبو الهياج بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

٣ - رقية :

ولدت سنة ثلاثة وثلاثين من مولد النبى ﷺ، وذكر الزبير بن بكار أنها أكبر بناته، وصححه الجرجاني النسابة، والأصح أن زينب أكبرهن، واختلف فى رقية وفاطمة وأم كلثوم، والأكثر أنهن على هذا الترتيب . وصحح الجرجاني أن رقية أصغرهن وقبل فاطمة .

كانت رقية قد عقد عليها عتبة بن أبى لهب [أسلم عام الفتح هو وأخوه معتب] وكانت أختها أم كلثوم قد عقد عليها أخوه عتبة [مات كافراً] فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾ قال لهما أبوهما: رأسى من رءوسكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد - هذا التعبير يعنى: قربى منكما ممنوع، لأن شأن المتحابين وضع روءسهما على وسادة واحدة - ففارقاهما ولم يكونا دخلاً بهما فتزوج عثمان رقية بمكة - وكانت بارعة الجمال، وكذلك كان عثمان جميلاً فكان يقال: إنهما أحسن زوجين رأهما إنسان، وهاجر بها الهجرتين إلى الحبشة، وتوفيت فى رمضان والرسول فى «بدر» وكان سنّها إذ ذاك عشرين سنة، وكان عثمان متخلفاً معها لمراعاتها وهى مريضة بالحصبة .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس أنها لما ماتت قال النبى ﷺ «الحقى بسلفنا عثمان بن مظعون» وبكت النساء، فجاء عثمان يضربهن فقال النبى ﷺ «مهما يكن من العين والقلب فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن

الشيطان» ويقال: إن فاطمة قعدت على قبرها تبكى وكان النبي يمسح عينيها بطرف ثوبه، وذلك بعد أن دفنت وحضر النبي من بدر وزار قبرها.

ولما عزى النبي فيها يقال: إنه قال «الحمد لله، دفن البنات من المكرمات» أخرجه الدولابي والطبراني والبزار بسند ضعيف، ولو صح لكان هذا القول من باب التسلية عن المصيبة، وحاشاه أن يقوله كراهية للبنات.

ولدت لعثمان ولداً واحداً، هو عبد الله، وذلك بالحبيشة، وكان يكنى به، عاش ست سنين، ومات سنة أربع من الهجرة، من أثر نقرة ديك، وكانت وفاته بعد وفاة أمه، ولم تلد له غيره. ولما توفي وضعه النبي في حجره وقال «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

٤ - أم كلثوم:

اسمها هو كنيته ولا يعرف لها اسم، ولدت على الأصح بعد رقية، وكانت كما سبق تحت عتيبة بن أبي لهب، ويروى بطريق مرسل أن عتيبة جاء إلى النبي ﷺ فقال: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم سطا عليه وشق قميصه وهو خارج نحو الشام تاجراً، فقال النبي ﷺ - كما رواه الحاكم وصححه - «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً، فَوَجَمَ وقال: ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي. فخرج في تَجَرٍ - جمع تاجر - من قريش حتى نزل ليلاً في مكان بالشام يقال له الزرقاء، فأطاف بهم الأسد فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي هو والله أكلني كما دعا عليّ محمد، أقاتلي ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام؟ فعدا عليه الأسد من بين القوم، فأخذ برأسه ففدغه - كسره - وجاء في رواية أبي نعيم أن أبا لهب أحس خطر دعوة النبي فأمر القوم أن يحتاطوا لذلك. بجمع الأمتعة على صومعة الراهب التي نزلوا بالقرب منها، وأن يفرشوا له عليها ويناموا حوله، فلم يمنع ذلك كله من وثوب الأسد عليه وقتله - في كتاب حياة الصحابة (ج ١) تأليف محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي أن هذا الخبر رواه الطبراني عن قتادة مرسلاً، قال الهيثمي: وفيه زهير بن العلاء، وهو ضعيف.

وتقدم فى بحث الخطبة أن عمر بن الخطاب عرض بنته حفصة لما تأيئت - على عثمان، ولكنه لم يجبه لذلك، فتزوج أم كلثوم سنة ثلاث من الهجرة فى ربيع الأول، أى بعد وفاة رقية بنحو ستة أشهر، وروى ابن سعد أن النبى قال «والذى نفسى بيده لو أن عندى مائة بنت يمتن لزوجتك واحدة بعد الأخرى هذا جبريل أخبرنى أن الله يأمرنى أن أزوجهكها».

توفيت أم كلثوم عند عثمان فى شعبان سنة تسع، وغسلتها أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب [تزوجت بعده أبا بكر ثم علياً] وصفية بنت عبد المطلب، وشهدت أم عطية غسلها، وروت فيه حديث النبى ﷺ - كما أخرجه ابن ماجه بسند صحيح - دخل علينا النبى حين توفيت ابنته فقال «اغسلنها وتراً، ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو أكثر إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن فى الآخرة كافوراً، فإذا فرغتن فأذننى، فلما فرغنا آذناه، فألقى علينا حقوة. بفتح الحاء وكسرها هو معقد الإزار، والمراد به الإزار، فقد جاء فى رواية: فنزع من حقوه إزاره - وقال «أشعرنها إياه» يعنى اجعلنه شعارها الذى يلى جسدها، أما الدثار فهو ما فوق الشعار. قالت أم عطية، كما فى البخارى، ومَشْطُناها ثلاثة قرون، وألقيناها خلفها، وصلى عليها النبى، ونزل فى حفرتها على والفضل بن عباس وأسماء بن زيد. وفى البخارى عن أنس: جلس رسول الله علي القبر وعيناه تذرفان فقال «هل فيكم من أحد لم يقارف - يجمع - الليلة؟» فقال أبو طلحة زيد بن سهل الأنصارى: أنا: فقال «انزل قبرها» فنزل فقبرها فيه. فيجوز أن الذى حفر القبر على ومن معه، وأن الذى أنزلها فيه هو أبو طلحة.

والحكمة فى اختيار النبى لمن لم يقارف أهله الليلة - أن من كان قريب عهد بالجماع فى تلك الليلة ربما حدثته نفسه بما يحدثها به الشيطان، فأراد النبى أن يكون قابرها بعيد العهد بذلك، وروى أن عثمان كان قد اتصل بإحدى جواريه ليلة وفاة أم كلثوم، فتلطف النبى فى منعه من قبرها بغير تصريح، ولم تلد رضى الله عنها لعثمان أى مولود.

٥ - فاطمة :

تلقب بالزهراء والبتول . والبتول هي المنفردة عن نساء زمانها فضلاً ودينًا وحسبًا، وقيل : لانقطاعها عن الدنيا إلى الله، لأن البتل هو الانقطاع، وروى مرفوعاً أنها سميت فاطمة لأن الله فطمها هي ومحبيها عن النار، كما أخرجه ابن عساكر، أو فطمها هي وذريتها عن النار يوم القيامة، وكانت تكنى أم أبيها .

يقال : إنها ولدت سنة ٤١ من مولد النبي ﷺ أى بعد البعثة، لكن ابن إسحق قال : إن أولاد النبي كلهم ولدوا قبل البعثة إلا إبراهيم، وقال ابن الجوزي : ولدت قبل النبوة بخمس سنين أيام بناء البيت، وقيل : قبل البعثة بقليل نحو سنة أو أكثر . وهي أسن من عائشة بنحو خمس سنين .

تزوجها على في السنة الثانية للهجرة، واختلف في شهر زواجها، فقيل في محرم أو أول صفر، أو رجب أو رمضان، وقيل كان زواجها في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة أحد، لكنه مردود، لأن حمزة قد ذبح شارفي على وكان يريد البناء بفاطمة كما في الصحيحين، وحمزة استشهد في أحد، فالزواج قبل أحد، وقيل : كان بعد بناء النبي بعائشة الواقع في شوال من السنة الثانية بنحو أربعة أشهر ونصف، أى في صفر، وبنى بها علي بعد تزوجها بسبعة أشهر ونصف أى في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وقيل : عقد عليها في صفر سنة اثنتين من الهجرة، وبنى بها في ذى الحجة على رأس ٢٢ شهراً من الهجرة، وهي - كما يقول كتاب السيرة - أقوال متباينة يصعب التوفيق بينها .

وعاشت السيدة فاطمة مع علي عيشة رقيقة على ما هو مدون في عدة مواضع من هذه الموسوعة، وبقيت معه ولم يتزوج عليها حتى توفيت، وحدث أن آل أبي جهل أرادوا أن يزوجوا ابنتهم من علي بعد الفتح، فغضب النبي ﷺ على ما هو موضح في بحث تعدد الزوجات وفي حقوق الزوجين . وكانت وفاتها بعد وفاة النبي بستة أشهر، كما في الصحيح عن عائشة، وذلك لثلاث خلون من رمضان في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وقيل : بعد وفاته بثمانية أشهر، وقيل

غير ذلك . روى الشيخان عن عائشة قالت : أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ، فقال « مرحباً بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت ، فقلت : ما رأيت كالיום أقرب فرحاً من حزن ، فسألتها عما قال : فقالت : ما كنت لأفشي عن رسول الله سره ، فلما قبض سألتها ، فأخبرتني أنه قال « إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلي ، إنك أول أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلف أنا لك » فبكيت ، فقال « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين » فضحكت ، وجاء في تفسير الطبري أنه قال لها فيما قال « أحسب أنني ميت في عامي هذا وإنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين مثل ما رزئت ، فلا تكوني مثل امرأة منهن صبراً » ، وأنه قال لها « أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم » والخلاف في أفضليتها على مريم أو على نساء العالمين عامة ، أو إلا أمها خديجة خلاف لا طائل تحته .

روى أنها قالت لأسماء بنت عميس : إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء ، يطرح علي المرأة الثوب فيصفها : فقالت أسماء : يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة [حين كانت مهاجرة مع زوجها جعفر بن أبي طالب] فدعت بجرائد رطبة ، فحنتها فطرحت عليها ثوباً ، فقالت فاطمة : ما أحسن هذا !!! تعرف به المرأة من الرجال ، فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلى زوجي ، ولا يدخل علي أحد ، أخرجه ابن عبد البر ، لكن استبعده ابن فتحون بأن أسماء كانت زوجة أبي بكر فكيف تنكشف بحضرة علي في غسل فاطمة ، وهو محل الاستبعاد ، ولكن قيل : لا يلزم من التغسيل انكشافها فلا استبعاد ، فتغسل وهي مستورة أو تصب وعلى يغسل .

وعند ابن سعد أن علياً غسل فاطمة ، لكن هناك رواية تقول : إنه لم يغسلها أحد ، فعن أحمد وابن سعد عن أم رافع سلمى مولاة صفية قالت : مرضت فاطمة ، فلما كان اليوم الذي توفيت فيه قالت لي : يا أمه ، اسكبي لي

غسلاً، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ولبست ثياباً جددًا، ثم قالت : اجعلي فراشي وسط البيت فجعلته، واضطجعت في وسط البيت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها ثم استقبلت القبلة وقالت : إني مقبوضة الآن، وقد اغتسلت فلا يكشفني أحد ولا يغسلني، ثم قبضت مكانها، ودخل على فأخبرته بالذي قالت، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك، ولم يكشفها ولا غسلها أحد . لكن هذه الرواية ضعيفة، ومضادة لخبر أسماء المتقدم .

وكانت فاطمة أول من غطى نعشها من أولاد النبي ﷺ علي الصفة المذكورة، وكانت زينب بنت جحش بعدها أول من غطى نعشها من أمهات المؤمنين، وجاء في البخاري أن علياً صلى عليها، وقيل : صلى عليها أيضاً العباس، ونزل هو وابنه الفضل وعليٌّ في حفرتها، وجاء في البخاري أيضاً أنها لما توفيت دفنها زوجها عليٌّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان دفنها بالبقيع، وقيل : في دار عقيل بن أبي طالب، وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع . كانت رضي الله عنها أحب أهل النبي إليه كما أخرجه الترمذي وحسنه . وأقوى ما يستدل به على فضلها قول النبي ﷺ «إنها سيدة نساء العالمين إلا مريم، وإنها رزئت بالنبي فكان في صحيفتها، وكان يقبلها في فيها ويمصها لسانه، وإذا أراد سفرًا يكون آخر عهده بها من أهله، وإذا قدم أول ما يدخل عليها وقال فيها : فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني كما في الصحيحين، عند خطبة علي لبنت أبي جهل، وقالت عائشة : ما رأيت أحداً أفضل من فاطمة غير أبيها كما أخرجه الطبراني في سند صحيح . وجاء أنها لم تحض ولم تنفس فهي طاهرة، وذلك مذكور في حقوق الزوجين . روت الحديث عن أبيها، وروى عنها ابنها وعائشة وأم سلمة وسلمى أم رافع وأنس .

أولادها :

ولدت لعلي ثلاثة ذكور وبنتين، أما الذكور فهم الحسن والحسين ومُحَسَّن، الذي مات صغيراً، وأما البنات فهما أم كلثوم وزينب .

روى أحمد عن علي: لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء ﷺ فقال: «أروني ابني، ما سميتموه؟» فقلنا حرباً، قال «بل هو حسن» فلما ولد الحسين فذكر مثله، قال «بل هو حسين فلما ولد الثالث فذكر مثله قال هو «محسن» ثم قال «سميتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر» وإسناده صحيح، ولم يكن للنبي ذرية إلا من فاطمة وولديها الحسن والحسين على الخصوص.

١ - الحسن، هو أكبر أولادها، ولد في منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، ولّى الخلافة بعد أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام بها ستة أشهر وأياماً، ثم تنازل عنها لمعاوية، وصدق في ذلك ما رواه البخاري «إن بني هذا سيد سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وكان ذلك سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الأول وقيل في جمادى الأولى، وله ترجمة وافية في رسالة الصبان وفي نور البصائر والأبصار للشبلنجي، وتوفي سنة خمسين أو تسع وأربعين، ودفن بالبقيع، وكان له من الأولاد: محمد الأصغر، وجعفر وحزمة، ومحمد الأكبر، وزيد، والحسن المثنى، وفاطمة، وأم الحسن، وأم الخير، وأم عبد الرحمن، وأم سلمة، وأم عبد الله، وإسماعيل، ويعقوب، والقاسم، وأبو بكر، وطلحة، وعبد الله، كما ذكرهم سبط ابن الجوزي، واقتصر البلاذري في الأنساب على ذكر الحسن وزيد وحسين وعبد الله وأبي بكر وعبد الرحمن والقاسم وطلحة [ص ١٧٢ من رسالة الصبان على هامش مشارق الأنوار].

٢ - الحسين، حملت به أمه بعد ولادة الحسن بخمسين ليلة، وولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع على الأصح، وانتهى بقتل يزيد بن معاوية له في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ وله ٥٨ سنة ورزق من الأولاد خمسة: علي الأكبر، وعلي الأصغر، وجعفر، وفاطمة وسكينة.

٣ - أم كلثوم، ولدت قبل وفاة النبي ﷺ وتزوجها عمر بن الخطاب، وولدت له زيدا الأكبر، ورقية ولم يعقبا. ثم تزوجها بعد عمر ابن عمها عون بن جعفر بن أبي طالب، الذي ولد لأبيه في الحبشة عندما كان مهاجراً بها، وبعد موته تزوجت أخاه محمد بن جعفر المولود بالحبشة أيضاً، وبعد موته تزوجت

بأخيها عبد الله بن جعفر، وكان أسنَّ من أخويه وأحد الأجواد، وقد ولد بالحبيشة أيضاً، وتوفي سنة ٨٠ هـ وسنه ثمانون سنة .

روى النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن جعفر قال : لما قتل جعفر قال ﷺ « ادعوا لى بنى أخى » فجىء بنا كأننا أفراخ، فأمر الحلاق فحلق رؤسنا، ثم قال « أما محمد فيشبه عمنا أبا طالب، وأما عبد الله فيشبه خلقى وخلقى، وأما عون فيشبه خلقى وخلقى، ثم أخذ بيدى فأمالها وقال « اللهم اخلف جعفرأ فى أهله، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه » قال ابن سعد : فكانت أم كلثوم تقول : إني لأستحي من أسماء بنت عميس، ولداها عندي، فأتخوف على الثالث، ثم ماتت عنده : ولم تلد لواحد من الثلاثة سوى الثانى وهو محمد، ولدت له ابنة توفيت صغيرة، فليس لأم كلثوم بنت فاطمة عقب .

٤ - زينب ، ولدت فى حياة جدها أيضاً، وكانت لبيبة جزلة عاقلة، لها قوة جنان، وكان لها دور فى معارك أخيها الحسين ضد بنى أمية، تزوجها عبد الله ابن جعفر، فولدت له عدة من الأولاد، منهم على وأم كلثوم وعون وعباس ومحمد .

٦ - عبد الله بن النبى :

مات صغيراً بمكة، واختلف هل ولد قبل النبوة أو بعدها، وهل هو الطيب والطاهر، والصحيح أنهما لقبان كما تقدم .

٧ - إبراهيم :

هو آخر أولاده، وهو من مارية القبطية، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة باتفاق، أما محل ميلاده فقيل : ولد بالعالية، وهو المحل الذى أنزل فيه النبى ﷺ « مارية » وصار يقال لها « مشربة أم إبراهيم » وكانت سلمى أم رافع مولاة الرسول ومولاة صفية قابله، فبشر أبو رافع زوجها به النبى فوهب له عبداً، وعنت عنه يوم سابعه بكبشين وحلق رأسه أبو هند البياضى مولى فروة بن عمرو البياضى من الأنصار . وأبو هند قيل : اسمه يسار أو سالم أو عبد الله . وأخرج الطبرانى عن عائشة عن النبى قال « من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان فى

قلبه فليَنظر إلى أبي هند» وتصدق النبي بزنة شعره ورقاً، أى فضة، على المساكين، ودفنوا شعره فى الأرض.

وفى البخارى عن أنس بن مالك أن النبى قال «ولد لى الليلة غلام سميته باسم أبى إبراهيم» ثم دفعته إلى أم سيف - امرأة قَيْن أى حداد بالمدينة يقال له أبو سيف - فانطلق رسول الله فاتبعته، فانتهى إلى أبى سيف وهو ينفخ كيره وقد امتلأ دخاناً، فأسرعت المشى بين يدى رسول الله، فقلت: يا أبا سيف أمسك، جاء رسول الله، فأمسك، فذكر الحديث.... هذا لفظ مسلم، ولفظ البخارى عن أنس: دخلنا مع رسول الله على أبى سيف القَيْن وكان ظُفراً لإبراهيم - الظُفْر هو الموضع، لأنه زوج المرضعة، وأصله من ظُفرت الناقة إذا عطفت على غير ولدها، فقليل ذلك لمن ترضع غير ولدها - فأخذ رسول الله إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرّفان، فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» وجاء فى الحديث أنه بقى عندها إلى أن مات.

قال الزبير بن بكار: لما ولد إبراهيم تنافست الأنصار فيمن ترضع إبراهيم فأنهم أحبوا أن يفرغوا مارية له عليه الصلاة والسلام، فأعطاه لأم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس، فكانت ترضعه بلبن ابنها فى بنى مازن بن النجار، وترجع به إلى أمه. وأعطى ﷺ أم بردة قطعة نخل لرضاعها، وتقدم أنه أعطاه إلى أم سيف. فهل هى أم بردة فتكون لها كنيستان كما قال عياض؟ والأصح أنهما امرأتان، فيحتمل أن يكون أعطاه أولاً أم بردة، ثم أعطاه أم سيف.

توفى إبراهيم وله سبعون يوماً كما ذكره أبو داود، وكان ذلك فى السنة التاسعة. وجزم الواقدى بأنه مات فى السنة العاشرة، وكانت وفاته فى يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول، وقيل: بلغ ستة عشر شهراً وثمانية أيام. وقيل غير ذلك.

وفى البخارى عن عائشة: عاش ١٧ أو ١٨ شهراً، وهو الأرجح، وغسله أبو بردة، وقيل: الفضل بن العباس، وحمل على سرير صغير من بيت مرضعته إلى البقيع. وصلى عليه النبي بالبقيع، وقيل: لم يصل عليه وقال «ندفنه عند قبر عثمان بن مظعون» ونزل قبره الفضل وأسامة بن زيد. وكان النبي على شفير قبره، ورش القبر وعلمه بعلامة، وما روى أنه لقنه وأن عمر ومعه بعض الصحابة بكوا لأن النبي ﷺ لن يلقنهم عندما يموتون ونزول قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ....﴾ فمنكر جداً.

وعن المغيرة أن الشمس انكسفت يوم موت إبراهيم فقال الناس: إنما كسفت لموت إبراهيم، فقال النبي «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله» رواه الشيخان. قيل: الغالب أن يكون الكسوف يوم الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين، فكسفت يوم موت إبراهيم فى العاشر من الشهر عند الأكثر، وقيل فى رابعه، وقيل فى رابع عشره، فلذلك قالوا: كسفت لموته.

ولما توفى قال النبي ﷺ «إِنَّ لَهُ مَرْضِعاً فى الْجَنَّةِ» رواه ابن ماجه وجاء فى مسلم أنه له مرضعين يكملان رضاعه فى الجنة.

وقال أنس - موقوفاً عليه - : لو بقى إبراهيم لكان نبياً، ولكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء. أخرجه ابن عبد البر. لكن أخرج ابن ماجه وغيره عن ابن عباس: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ وقال: «إِنَّ لَهُ مَرْضِعاً فى الْجَنَّةِ وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صَدِيقاً وَنَبِيّاً، وَلَوْ عَاشَ لَأَعْتَقْتَ أَخْوَالهَ مِنَ الْقَبْطِ، وَمَا اسْتَرْقَ قَبْطَى» وسنده ضعيف. وجاء فى البخارى عن طريق شيخه محمد بن بشر عن إسماعيل بن أبى خالد قال: قلت لعبد الله بن أبى أوفى: رأيت إبراهيم بن النبي؟ قال: نعم كان أشبه الناس به، مات صغيراً، ولو قضى أن يكون بعد محمد نبى عاش إبراهيم، ولكنه لا نبى بعده، وسنده صحيح، واستنكر النووى أن يصدر هذا الكلام عن أحد من السابقين، وعده جسارة على الكلام على المغيبات، وذكر ذلك فى تهذيب الأسماء واللغات الواقعة فى الشرح الكبير للرافعى على الوجيز.

تتمة :

زيد بن حارثة . كان النبي ﷺ قد تبناه قبل الإسلام، وإليك نبذةً عنه على الرغم من أنه ليس ابناً من صلبه .

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبي، حبُّ رسول الله، كان قد أسرف في الجاهلية لما خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من بنى معن من طيئ، لتزيه أهلها، فأصابته خيل بنى القين لما أغارت على بنى معن، فأتوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع وهو غلام يفع، قيل : ابن ثمان سنوات، فاشتراه حكيم بن حزام لعمرته خديجة بنت خويلد، فاستوهبه النبي منها، فوهبته له، فأعتقه وتبناه، وذلك قبل البعثة .

وجاء أبوه وعمه « جَبَلَة » إلى مكة عندما نعى إليهما أنه عَبْدُ محمد، وطلباً أن يفدياه، فخيره النبي بين أن يدفعه لهما أو يبقى عنده فاختار أن يبقى عنده، فلما رأى النبي ذلك قام إلى الحجر وقال « اشهدوا أن زيدا ابني، أرثه ويرثني » فطابت نفس أبيه وعمه، وانصرفا . فدعى : زيد بن محمد : فلم يزل عنده حتى جاء الإسلام فأسلم . أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن واسمها « بركة » فولدت له أسامة بمكة بعد البعثة بثلاث سنين أو بخمس، ثم زوجه من زينب بنت جحش . فلما طلقها زوجه أم كلثوم بنت عقبة، وعلى هذا فقد غلط من قال : إنه تزوج بركة بعد طلاقه زينب كما قال ابن الكلبي عن ابن عباس .

وليس في القرآن من ذكر باسمه من عامة الناس إلا هو باتفاق، وقال النبي فيه « وأيم الله إن كان خليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا - يعني ابنه - لمن أحب الناس إلي » رواه البخاري . وفرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لابنه عبد الله، فسأله السبب : فقال : إنه كان أحب إلي رسول الله منك، وأبوه أحب إليه من أبيك . وهو صحيح . استشهد زيد في غزوة مؤتة وهو أمير سنة ٨هـ، ومات ابنه أسامة بالمدينة سنة ٥٤هـ وقيل بعده .

* * *